

احتلال الجزائر في مرتبة عبد القادر الوهراني الشعبية

أ/عطية رغيصة

جامعة البليدة 2

للشعر الشعبي دور كبير في إذكاء الروح الوطنية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وقد حمل لواء هذه المقاومة الشعراء الشعبيون وعلى رأسهم الشاعر الجوال "الذي عبر من خلالها عن طموحات الضمير الجمعي الجزائري التواق إلى الحرية والعزة والكرامة" (1)

هؤلاء الشعراء حملوا "لواء النضال بالكلمة الشاعرة القارعة للأذان، فأصابوا بها قلوبا عطشى للفداء والتضحية، وأفاضوا بها المشاعر الوطنية الملتببة، فحققوا بذلك قيما وطنية غرست في النفوس التفاني في حب الوطن" (2)

وفي هذه الظروف الحالكة، ينطلق الشعر الشعبي في التعبير قصد الدفاع عن الوحدة الوطنية و الوحدة الترابية بما أوتي من أساليب التعبير الشعبية، إما قصة شعبية في قالب شعري مستوحاة من التراث، أو قصيدة شعرية شعبية ينقل لنا فيها الواقع المرير الذي كان يعيشه الجزائريون آنذاك نقلا أميناً. وبهذه الصورة التعبيرية الشعبية، يكون الشعر الشعبي قد فلت من الرقابة الاستعمارية الضاغطة التي كانت تشنها فرنسا على الشعراء الشعبيين، لأنهم يمثلون الكلمة المقاومة الراضة لوجودهم على هذه الأرض التي اغتصبوها عنوة، و شردوا أهلها. واستمر على هذا النهج المقاوم حتى نيل الاستقلال .

ويسجل لنا "تاريخ الأدب الشعبي" أنه بعد سقوط العاصمة الجزائرية في 5 جويلية 1830م، "فإن الشعر الشعبي كان أول من بكأها وسجل مأساتها بدمعة سخية و زفرة ملتببة، وشنع بالخطرة التركية التي تستأسد على الشعب وتستونق في وجه الغزاة" (3)

و كان عبد القادر الوهراني هو أول شاعر بكى عاصمة الجزائر لما سقطت بأيدي المحتلين، و كان شاعرا شعبيا، سجل لنا ذلك في قصيدته المطولة التي تبلغ أكثر من مئة بيت، وهي "دخول الفرنصيص" (4) وهي من عيون الشعر الشعبي الجزائري إنها "قصيدة طويلة نظمت بالملحون فموضوعها ثم رواجها بين الجماهير طيلة ليل الاستعمار يجعلانها و صاحبها مرتبطة ارتباطا وثيقا بوجودنا" (5) يقول أبو القاسم سعد الله عن هذه القصيدة: "إن قصيدة - رثاء الجزائر - للشيخ عبد القادر الوهراني وثيقة تاريخية هامة ، وهي ليست مجرد وصف وسرد للأحداث التي جرت نتيجة الاحتلال، ولكنها مفعمة بالمشاعر الإنسانية العميقة، فالرجل لا ينطلق من دوافع شخصية، ولكنه قد انطلق من غيخته على الوطن و الدين و التراث و القيمة التاريخية لمدينته وآثارها ، و لذلك يجب أن تدرس هذه الوثيقة في المدارس و الجامعات في مواد التاريخ و الأدب والآثار وهي دليل على أن الأدب الشعبي الصادق يظل خالدا رغم مرور الزمان". (6) فهذه شهادة من شيخ المؤرخين الجزائريين تثبت لهذه القصيدة العصماء مكانتها التاريخية التوثيقية فضلا عن مكانتها الأدبية .

و نظرا لمكانتها الرفيعة في عالم الأدب الشعبي الجزائري فإن عبد المالك مرتاض يرى: "بأن كتب التاريخ لا تستطيع أن ترصد الأحوال التي آلت إليها الجزائر بعد احتلال مدينة الجزائر، فالشعراء وحدهم هم الذين يستطيعون ذلك ، فهم حقا لا يذكرون الأعداد و الأحداث و الأزمنة الدقيقة ، و لكنهم يستطيعون ذكر زبدة ذلك و هم صادقون". (7) و قد جاءت هذه الزبدة في قصيدة الوهراني: "فوفق توفيقا تفرد به وحده في غياب أي قصيدة ترقى إلى مستوى قصيدته صدقا و فنا". (8) . هذه القصيدة مؤلفة من أكثر من مئة بيت كما ذكرت أنفا ، و هي: "تحتوي على تسجيل لمختلف الوقائع و تحديد للأيام و للأماكن وتصوير للوقائع و للواقع النفسي الذي عاشه سكان الجزائر العاصمة أيام الغزو". (9). و الملفت في هذا القول ، أن القصيدة صورت الواقع النفسي لسكان الجزائر

العاصمة أيام الاحتلال الأولى ، وإن تفرد التاريخ بذكر الوقائع فقط ،
والقصيدة وإن كانت في رثاء مدينة الجزائر فإنها في الحقيقة رثاء لكل الجزائر ،
لأن ما وقع في العاصمة في أول الأمر وقع مثله في غيرها بعد ذلك . (10). ويرجح
سعد الله أنها " قيلت بعد الاحتلال بقليل ، أي بعد استيلاء الفرنسيين على
المدينة و جلاء معظم أهلها عنها وتعطيل المدارس و المساجد وهجرة العلماء
والطلبة و الإستحواذ على الخزينة . " (11).

ويصف لنا الشاعر احتلال الجزائر -المدينة - فيصور لنا لوحة الحزن
والأسى التي عمت البلاد، بعد أن كانت "مزغنة" سيدة البحار ترهبها الأجناس
وتخشى بأسها الأمم " كما يشير الشاعر إلى أن قوات الاحتلال كانت أكثر عددا
وعدة ، من الجيش الجزائري، و قد كان عدد السفن لا يحصى، يضاف إلى هذا
أن الفرنسيين كانوا عازمين على احتلال الجزائر، و إذلالها، وأن كل تقديرات
الأتراك لمواجهة قوات الغزو و صدها كانت تقديرات خاطئة حيث لم تضع في
اعتبارها عدد القوات المسلحة التي جندتها فرنسا لاحتلال الجزائر. " (12)
يقول:

الأيام يا اخواني تبدل ساعاتها	و الدهر ينقلب ويولي في الحين
بعد كان سنجاق البهجة ووجاقها	الأجناس تخافها في البر وبحرين
أمنين راد ربي ووفي ميعالها	واعطاوها أهل الله الصالحين
الفرانصيص حرك لها، وأخذها	لا هي مياه مركب لا هي ميتين
بسفائنه يفرص البحر قبالتها	كي جا من البحر بجنود قوين
غاب الحساب وادرك وتلف حسابها	الروم جوا للبهجة مشتدين

راني على الجزائر ياناس حزين (13)



هذه القصيدة : "أشاعها الرواة المحترفون . المداحون . في مختلف المناطق التي طالتها يد الغزو العسكري الفرنسي ، وكانوا . حسب . ما يذكره من سجلوا هذه القصيدة و علقوا عليها يلحون في إنشادهم على المقاطع التي تحرض على الجهاد...

ويشير هؤلاء المعلقون . ومن بينهم بعض الأوروبيين . إلى أن هذه القصيدة ساهمت فعلا في إضرام نار الثورات كثورة ابن زعمون سنة 1830م و ثورة مليانة سنة 1851 م . " (14) وعن الرواة والمداحين ، أخذ الشعب يرددها ويتناقلها عبر الأجيال ، لأنها تعتبر وثيقة تاريخية سجل فيها الشاعر أهم الأحداث التي تلت الاحتلال واصفا حالة الأهالي وجبروت المحتل و قساوته ، ونظرا لهول الأحداث المتلاحقة ، لم يكن أبدا يتصور أن الجزائرية سيدة البحر المتوسط تسقط بهذه السهولة فأين هي الجزائرية التي كانت الأجnas تخافها في البر و بحرين و من جهة البحر قاع الناس تخافها و برج الفنار منوكي مضعورين وبين جزائر تحت نير الاحتلال التي زال الكلام عنها يا مسلمين. فالشاعر يسأل ويقارن الجزائريين الأمس و اليوم. بين أيام العهد العثماني و عهد الاحتلال، ولكن لا من مجيب. كما يشير الشاعر إلى أن اليهود الذين كانوا يعيشون في ظلها آمنين، فرحوا لاحتلالها و نكبتها - حتى اليهود فرحوا لينا و نساهم الكلاب تزغرت- بل كانوا هم السبب في احتلالها و ذلك بسيطرتهم على التجارة الخارجية ، و قصة الديون التي كانت للدولة الجزائرية على الحكومة الفرنسية وكذلك قصة المروحة المعروفة . (15)

ويرى الشاعر أن دخول القوات الفرنسية الغازية عن طريق - سيدي فرج - كان أمرا لا بد منه ، بعدا ما درسوا كل المنافذ قبل الغزو المؤدية إلى الدخول (16) وهذا خوفا من قوة المدافع الجزائرية التي كانت منصوبة في برج الفنار- برج المراقبة - و مصوبة نحو البحر استعدادا لأي طارئ ، وهجوم أي محتل ،

لأن كل الغزاة السابقين تحطموا على صخرته ، و لذلك عدل الفرنسيون على الدول من ناحيته و ا اختاروا مضطرين - سيدي فرج - كمدخل آمن ؟

ورغم قوة المحتل المتمثلة في كثرة العدة و العتاد ، سفنه الحربية كانت تغطي البحر ، و الجيش الذي يغطي الشعاب و السهول كالجراد ، قد ر بأكثر من ثلاثين ألف جنديا ، فقد هبت القوات الجزائرية للدفاع عن الوطن و حمايته ، و ابتلي الرجال ففضل الأبطال الموت على الحياة الذليلة تحت نير الاستعمار .
يقول الشاعر :

الكلب غير رقب للمرصى شافها	شاف المدافع لوجهه منصوبين
من جهة البحر قاع الناس تخافها	برج الفنار منه كي مضعورين
برم سفائنه و تقدم قدامها	في سيدي فرج نزل ذا اللعين
اسواحل البحر تحكي لك غطاوها	الأوطان و السهل ثم شعاب آخرين
لم المحال في يوم السبت و جابها	و السبت ماتوا فيه شي من المسلمين
ماذا ابطال ماتت و اخلات ديارها	راحوا تزوجوا مع حورات العين ⁽¹⁷⁾

إلى أن يقول :

حتى اليهود فرحوا لينا	و نساهم الكلاب تزغرت
اغلاش شايعة مزغنا	حتى النساء معنا حزنت ⁽¹⁸⁾

ولم يرض الشاعر عن هذه الهزيمة المؤسفة و احتلال العاصمة بهذه السهولة ، فهذا أمر غير متوقع . إذ كيف يهزم جيش - " دانت له الأساطيل القوية ، و فرض إرادته على قراصنة البحار حقبة طويلة أن يهزم في ثلاثة أيام ، وهو أمر يكاد لا يصدقه الشاعر ولا غيره " ⁽¹⁹⁾ وهذا ما جعله ينقل لنا هول المأساة كشاهد عيان عاش الأحداث عن كثب :

كي جاز على سطاوالي بطبول والعساكر و السنجاكين



في الليل راحت الروم ضربت طنبورها و المومنين تبكي يا مسلمين
 البعض راح و البعض صبر لطرادها شدوه في الجنان نحو اليومين
 المومنين هامت و خلات أوطانها و اتفرقوا على البلدان مساكين
 من درى على الجزائر و على تحصانها وعلى وجاقها نزلت فيه العين (20)
 ثم يتأسف الشاعر على ضياع الجزائر و خراب قصورها و قلاعها وصوامعها
 وعلى انقطاع قراءة القرآن فيها و العلم في المدارس و المساجد والزوايا ، وعلى
 هجرة العلماء و مغادرة الطلبة مجالس العلم ، كما تأسف على المعابد التي
 داسها المستعمر بقدميه ، وعلى نبشه لقبور المسلمين ، كما تأسف على مصير
 الفقهاء و القضاة و الحزابين ، و على تحفها الثمينة و ديارها وديارها:
 حسراه وين دار السلطان و ناسها صدوا وجاواليها أوجوه آخرين
 حسراه وين بايات مع قيادها يا من درى على ذوك القصباجين
 حسراه على السراية و على حكامها و على مواضع الحكم المعزوزين
 حسراه على المفاتة وعلى قضاتها علمات البلاد مصابح الدين
 حسراه على الجوامع وعلى خطاياها و منابر الرخام اللي مرفوعين
 حسراه على الصوامع وعلى آذانها و على ادرساها ثم الحزابين
 حسراه على المساجد غلقت بيبانها ضحاوا اليوم ياسيدي منسيين
 حسراه وين تحفاتها وين ديارها وين البيوت وغرف المحصنين (21)

وخطب إخوانه المسلمين بإحياء فريضة الجهاد للدفاع عن الوطن السليب ،
 ورغيم في الجنة و الحور العين ، واعتبر من مات قد استراح ، وأما الحي فهو
 الذي بقي يواجه المحن ، و استجاب الشعب لندائه و قامت بعده مقاومات ،
 آخرها ثورة الفاتح نوفمبر الخالدة، التي كانت فعلا : " ثورة شعبية بكل أحداثها

ووقائعها وقد استقطبت معظم الطبقات الشعبية من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في وحدة وطنية متكاملة " (22)، أسفرت عن الاستقلال الذي تنعم به أجيال اليوم ، يقول أبو القاسم سعد الله: " حقا إن الشعر الشعبي قد سجل كثيرا من الحوادث السياسية و العسكرية ، كما كان سجلا للنبيض الاجتماعي و الاقتصادي في البلاد، وبذلك يمكن القول من الناحية التاريخية أنه كان أشمل و أقرب إلى الحقيقة من الشعر الفني ، فبينما كان الشعر الفني شعر بلاط أو شعر نفس مهزومة، أو شعر مدائح نبوية و نحوها ، كان الشعر الشعبي يدون ما يجري في جميع المستويات تقريبا، ويصف ردود الفعل بآلة تسجيل أمينة ". (23) و الذخيرة الهائلة من القصائد الشعبية التي دمجها الشعراء الشعبيون ، وهي الآن ماثلة في مختلف المصادر، شاهدة على ذلك. فهي تكون لنا حقيقة ذخيرة أدبية ، لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنها في معرفة ماضي الجزائر الأدبي و الاجتماعي طيلة ليل الاستعمار البغيض .

الهوامش:

- 1- مظاهر وحدة المجتمع الجزائري من خلال فنون القول الشعبية ، أعمال الملتقى الوطني المنعقد بتيارت ، ما بين 13-14 أكتوبر 2002 ، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، 2005، ص 351 .
- 2- المرجع نفسه: ص 352 .
- 3- د/ صالح خرفي: شعر المقاومة الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، د-ت ، ص 21.
- 4- هو من أعيان مدينة الجزائر ، ولم نعر على ترجمة له .
- 5- انظر القصيدة كاملة في :
- أ / مجلة آمال ، ع 68 ، ط 2 ، سنة 2000 للعدد 4 سنة 1969، عدد خاص بالشعر الملحون . ص 96/91.

ب / د/ التلي بن الشيخ : دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة ، -1830-1945 - ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1983 ، الملحق الشعري ، ص ص 482/486.

ج/ د/ عبد المالك مرتاض : أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ، 1830-1962 ، سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، 2003، ص ص 87/85 .



د- جولول يلس و أومقران الحفناوي : المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

الجزائر ، 1975 ، ص ص 39/35

6- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص 91 .

7 - د/ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 8 ، 1954-1830 ، دار البصائر ، الجزائر ، ط 2007 ، ص 338 .

8 - د/ عبد المالك مرتاض : المرجع السابق ، ص 85 .

9- د/ عبد المالك مرتاض : المرجع نفسه ، ص 85 .

10- د/ عبد الحميد بو راو : البطل الملحي و البطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري ، ديوان المطبوعات

الجامعية ، الجزائر ، 1998 ، ص 23 .

11- د/ أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ص ص 336/ 335 .

12- د/ أبو القاسم سعد الله : المرجع نفسه ، ص 36 .

13- د/ التلي بن الشيخ : المرجع السابق ، ص 111 .

14- د/ عبد الحميد بو راو : المرجع السابق ، ص 24 .

15- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

16- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

17- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

18- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

19- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

20- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص

21- انظر : فيليب لوکا جون كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين - نقد السوسيولوجيا الكولونيالية ، ترجمة محمد يحياتن ، بشير بولفراق ، ورده لبنان ، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال ، 2002 .

22- مجلة آمال : المصدر السابق ، ص : 96/91

23- د/ التلي بن الشيخ : المرجع السابق ، ص

- 24- سطاوالي: نسبة إلى مصطفى والي، وهي مدينة غرب الجزائر العاصمة، تعرف بهذا الاسم حتى اليوم.
- 25- الروم: الفرنسيون، المحتلون.
- 26- الطنبور: أصل الكلمة فارسية، وتعني الدف الذي يستعمله الجيش عند النفير.
- 27- اتفرقوا: فروا من الموت والإبادة.
- 28- درى: من كان يظن أن الجزائر و مناعة تحصيناتها أن يحل ما حل بها.
- 29- مجلة آمال: المصدر السابق، ص: 96/91
- 30- مجلة آمال: المصدر نفسه، ص:
- 31- د/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2 1985، ص 325